

فكرة الإسلام في العلاقات الدولية

بقلم محمد عبد العزيز نصر

إن مشهد الحرب العالمية الثانية لا يزال حيا قويا في الأذهان . وأنا لا أنزل
تذكري صيحة الحرب والمثل العليا التي كان يلوح بها الساسة من الفريقين
المتحاربين لتوكيد السلم واقامة مجتمع عالمي يسوده العدل والاستقرار . فكان
المسكر الغربي يذهب الى أن القضاء على سلطات هتلر وموسوليني شرط
أساسي لانقاذ أوروبا وانتفاذ الحرية والديموقراطية كما كان هتلر يعد العالم
بنظام جديد يكفل له الهدوء وتجنب ويلات الحرب لألف عام . وذهب هتلر
وذهب موسوليني ولكن لم يذهب معهم القلق والاضطراب وحرب
الأعصاب والحروب الفعلية الجزئية التي تهدد بالتمهيد الى حرب عالمية ثالثة .
فهل لدى الإسلام ما يساهم به في اقامة صرح السلام العالمي . ؟

لم يكن هتلر أو موسوليني أو تشامبرلين الأسباب الحقيقية للحرب
العالمية الثانية ، وإنما كانوا أدوات تعبير عن النظم السائدة التي يدفع استمرار
وجودها الى الحرب بل يحققها خلقا ويجعلها ظاهرة طبيعية وليست ظاهرة
مرضية في المجتمعات الانسانية . وما تجدد الخطر والتهديد بحرب عالمية ثالثة
الانتيجة محتمة لبقاء النظم الاجتماعية والمذاهب الاجتماعية التي هيأت الفرص
من قبل لقيام هتلر وموسوليني وتشامبرلين واستمرار هذه النظم في حالة
من الخرخوخ الشديد والملثك الشديد ، ومن ثم فلن يتاح للعالم مجتمع سلمي
الا اذا حاول أن يغير المبدأ الذي يقوم عليه المجتمع العالمي في النطاق المحلي
والنطاق العام الانساني . ومن هنا كانت المساهمة التي يستطيع الإسلام استدائها
للعالم مساهمة عظيمة حقا لأنها تتصل بالمبدأ وبالاصول التي سبق أن مسها الإسلام
في الواقع مما حقق به للسلم في عالم متقطع الأوصال مليء بالعداوة والبغضاء
وضروب الاستيلاء والفرقة مما يكاد يحلم اليوم يشبهه . ويجكي سماته ومقوماته .

ان العالم في القرن العشرين يسير نحو الوحدة بحيثى اوسع مما يستطيع تدبير الانسان مجاراتها وأن نظرة الى خريطة الاحديس في العالم في القرن الثاني عشر والى خريطة المعاصرة تبين الفرق الشاسع بين العالم اليوم وعالم الأمس . فلقد ارتبطت شعوب الأرض بالبر والبحر والجو وأصبحت في نظمها الحضارية وحدة معاشية وعلمية وفكرية ، ولكن هذا الترابط المادى والاعتماد المتبادل في شؤون الحياة لم يقابل بتطور سياسى وتعاونى في علاقات بينى الانسان . فلا تزال مبادئ السياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر التى دفعت بالعالم الى الاشتباك في حربين عالميتين قائمة مزدهرة . وان كان شىء قد تغير بعد الحرب العالمية الثانية فقد تغير توزيع القوى على مسرح السياسة إذ أفل نجم أوروبا كقوة دولية فعالة يعدسان تحكمت في العالم زهاء الأربعة قرون وظهر القطب السوفيتى والقطب الأمريكى يتنازعان السلطان الدولى وبينهما تسمى مجموعة الحياض الايجابى الى احتلال مكان لا هو باليمن ولا هو بالشمال . ولهذا فان العالم المعاصر لقي أشد الحاجة الى مبادئ ثورية تقوم عليها نظمه الحاضرة وتنكيف بفعلها وفق ما غير طبيعة الاتصال بين شعوب العالم من المخترعات العلمية والتنظيمية والاجتماعية . ولقد كان الاسلام ثورة في القرن السابع الميلادى والاول فى القرن العشرين ثورة انسانية حقة لديها من جادتها الانسانية ما تخاطب به العالم وهو يتحسس الطريق نحو النجاة واجتماع النظم التى تتجاوب وتشابهه التعلنى في مجال المعاش والفكر . بل ان الاسلام وهو الدعوة العالمية الموجهة الى البشر جميعا لاقامة حياتهم على الامن والأخوة والعدل لكفر لا تبقى حكته في مد العون الى الانسانية في لحزمتها المعاصرة . وان قدم الاسلام العون الى البشرية في هذا الوقت العسير فانما يقدمه في أمل ورجاء وثقة بمقتبل الانسان غير خاضع لما اعترى الفكر العرقى وهو يعالج الأزمة الراهنة من تشاؤم وعجز واحساس بالحية واليوار (١-أ) .

فالاسلام يقدم للعالم المعاصر مذهب القوم في خلق الانسان وتنظيم مجتمعه وهو يقوم على مبادئ وحدة الخلق وتنوع المخلوقات داخل اطار هذه الوحدة اذ لا يرى الاسلام أى تعارض بين الوحدة والتنوع بل أنه لم يرى كمال الوجود

وأداء البشر رسالتهم في تعدد فروعهم واختلافهم أفراداً وأماً وهم يهجون
 بفنشاط الحياض في إطار الانسانية الموحدة. فلو أن هذه الفكرة صرت في أذهان
 أهل الأرض جميعاً وتملكتها لما كان هنالك ذلك التأكيد القوي لنظرية
 الاختلاف بين الأجناس والأجنحة بمبدأ التمييز بينها بإعانة صوفي غامض
 لا يقبل المجادلة أو الريب وبأستلوث قاس لا يقيم للإنسانية أي وزن أو تقدير .
 وثمة من الواضح أن النظرية القائمة على التمييز بين أجناس البشر قد لعبت
 وتلعب دوراً كبيراً في تمزيق الصلوات بين الأفراد والجماعات في ربوع
 الأرض خاصة بعد أن وجدت السبيل المهدداً أمامها بالاعتراف بها في حلق
 الدساتير التي حكمت الدولة الحديثة وفي سياسة الدول الاستعمارية . وما اعلان
 هنار لمبدأ التمييز العنصري إلا مثلاً مبالغاً فيه لما يجري فعلاً بين رعايا كثير
 من الدول التي تدعى زيفاً وبطلاناً أنها تمسوخ المدنية بل حاميها . . .

وإذ أن التجربة تخط دائماً في الذهن أثراً عميقاً مما تحفظه المطالعة أو الاستماع
 فإننا لا نزال شخصياً نلمس بطريقة مباشرة وبال العنصرية على البشرية
 فقد أتت لنا في السنتين الأوليين للحرب العالمية الثانية أن نكون في إنجلترا
 وأن نكون في مدرسة الاقتصاد والعلوم السياسية حيث كان الأستاذ هارولد
 لايسكي وهو من زعماء الفكر السياسي الحر المعاصر يلهب بباط بلاغته
 العنصرية النازية ويرى في انتصار الحلفاء الغربيين الوسيلة للقضاء على عدواها
 المهدد لكيان البشرية . ولكن ما أن زرنا مدينة الكاب في طريقنا من إنجلترا
 إلى مصر أثناء الحرب حتى وجدنا العنصرية تتحرك وتعيش ساهرة في غياب
 في دولة من دول العالم الذي أراد لنفسه أن يسمى « بالعالم الحر » . فالمركبات
 منقسمة إلى قسم للأوروبيين وآخر لغير الأوروبيين والفنادق والمتاجر والدور
 العامة كلها منقسمة إلى ما هو مخصص لاستعمال الأوروبيين وما هو مخصص
 لمن سواهم . وتسير حياة القوم هناك منقسمة في جميع وجوه نشاطهم اليومي
 ويرعى حدوث ذلك الانقسام سيف القانون وضغط الرأي العام وتبرز
 من كل ذلك نيران البغضاء والحقد والاحتقار والهوان . ولا يقف الانقسام
 في طريق الحياة عند حدود جنوب أفريقيا ، بل إن أبناء إصرار أهل الجنوب

في الولايات المتحدة على مواصلة الانفصالية العنصرية قد هزت ضمائر الأحرار من البشر ما تبلغ الحرص على التمييز بين الشعوب البيضاء والزنج الأبريكيين السود مبلغا جعل حاكم ولاية أركنساس أورفال فوبوس Orval Faubus يتحدى قوانين الانجاء الأبريكي الفيدرالية ويمتنع عن تنفيذ قانون نحو التمييز العنصري في ميدان التعليم حين أيد مدرسة ليتل روك Little Rock المركزية العالية في رفضها قبول التلاميذ الزنج من أهل البلاد . فما كان من إيزنهاور إلا أن أرسل فرقة من فرق الجيش الأبريكي U. S. 101. st. Airborne Division إلى مدينة ليتل روك لتكفل للتلاميذ الزنج حقا من حقوقهم المدنية ولتحارب بقوة السلاح عزم الأبريكيين الجنوبيين على نشأة أبنائهم على التباعد العنصري .

وان داء العنصرية لا يفتك بالمجتمعات التي يظهر فيها من الداخل وحسب بل يتجاوز أثره الحدود القومية ويعمل عمله الخبيث المدمر في ثنايا المجتمع الدولي . فالأمة التي يؤمن عنصر من عناصرها بالسيادة والتفوق على عنصر آخر يشاركه العيش في أرجاء الاقليم الواحد لا بد وأن يؤمن بالتفوق على سواه من الأجناس التي تقطن بلادا غير بلاده . وان الاحساس بالتفوق العنصري يؤدي حتما إلى ممارسة ذلك التفوق بأساليب الاستعمار الفعلي أو التفوذ الواقعي أو غير ذلك من أساليب الاستغلال . ونحن في الشرق الأوسط نعرف آثار تلك العنصرية الغربية في تاريخنا وحاضرنا . وما غزو مصر وفلسطين والجزائر إلا امتداد لأثر العنصرية من مهادها في أوروبا وأمريكا إلى ربوع بلادنا في عهد من الأثرة العنصرية وما تنطوى عليه من ضروب الإبادة والعدوان وانهاك القيم الجديرة بالإنسان . ولم تكد العنصرية تصبح سمة من سمات العصر وتتنافس في الميدان الدولي على الامتلاك والاقتناء والانفراد بالسلب والاستغلال حتى اهتزت أركان السلام العالمي وتعرض المجتمع الإنساني لحروب مستظرة متكررة تهدد بالفناء وانهاك حضارة الغرب السائدة. (أ-ب)

فلاسلام يعالج هذه الظاهرة العنصرية التي تفشت علواها وظهر أثرها الهدام في المجتمع الدولي بما يعطى للبشر من درم أصيل كلى يعلمهم التعايش

في زمالة وبر وتعاون لا التعايش في تعال من جانب وشعور بالنقص من جانب
آخر وما يستبعان من نزاع وتطاحن . ويتلخص هذا الدرس الاصلاحى
النفادى في تأكيد الاسلام لوحدة البشر في أصلهم وأبوتهم وانسابهم أول
ما نشئوا الى أسرة واحدة وأول ما نموا الى أمة واحدة هي أسرة الانسان
وأمة الانسان . وخلص الاسلام من هذا الحكم العام الى ثلاثة أحكام فرعية :

(أولا) أنه لا تفاضل أو امتياز بين أفراد هذه الأسرة وأعضاء
هذه الأمة فهم متساوون بقاوى وحدة الأصل والنبت .

(ثانيا) ان حكمة الله في خلق الانسان ووجوده تقتضى التنوع وتقصده
اليه في اطار هذه الوحدة الشاملة لأن التنوع يحقق غرض البشرية العلم
بما بين البشر وأهمهم المختلفة من تعارف وتفاهم وتنافس في الخير وتعاون
عليه .

(ثالثا) ان مقياس التفاضل والامتياز بين البشر لا يقوم الا على
الاستقامة أو تقوى الله والسير على هدى شريعته . فالناس متساوون بالانتساب
الى أب واحد وبالحداب أمام إله واحد . وان هذا الدرس القويم الذى يهدف
الى تحقيق صالح البشر وخيرهم عن طريق الاختلاف في اطار من الاتحاد
يجد التأيد من آيات الله الكريمة . فيقول الله تعالى في سورة الحجرات :

” يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا
وقبائل ليعرفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير “ (١)

ويقول تعالى في سورة البقرة :

” كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين
وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ،
وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم اليينات بغيا
بينهم فهدى الله الذين آمنوا . لما اختلفوا فيه عن الحق بإذنه ،
مد والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم “ (٢)

ويقول تعالى في سورة المائدة :

”وأزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب
ومهيئنا عليه قاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك
من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجلدكم
أمة واحدة ولكن ليلوكم في ما آفأكم فاستبقوا الخيرات الى الله
نرجعكم جميعا فينثبكم بما كنتم فيه تختلفون“ (٤)

وبهذه الأحكام العامة التي أتت مبدأ الوحدة البشرية والتنوع في اطارها
والمساواة بين أعضائها أفرادا كانوا أم جماعات وضع الاسلام أساسا مكينا
لتقدم الانسان ومهد له السبل بالعمل الدائب المستمر لارضاء حاجاته لمادية
والمعنوية وبلوغ مستوى الحياة الجدير بسمو الانسانية . وذلك لأنه دعا
الى رفع العوائق من طريق هذا التقدم مما يسجل التاريخ الأمثلة العديدة
على قيامها بين الأفراد والأمم . فالتسابق المعاصر بين بني الانسان في النطاق
القومي والعالمي لم ينكر دعوة القرآن في الاستباق الى الخيرات وحسب ،
وانما اتخذ شكلا عنيفا مديرا لصالح البشر وقد وجد التعبير السافر في السياسة
الحديثة والمعاصرة والفكر السياسي الذي يسندها ويبررها والمتمثل في أن حق
تقرير المصير عند الأمم لا يعنى حقها في حكم نفسها بنفسها فحسب ،
وانما يعنى أن يقرر العضو القوي نماءه وامتداده على حساب العضو الضعيف
من بين شعوب الأرض . فكانت آسيا وافريقيا في القرون الأربعة الأخيرة
مجال تطبيق لهذا المبدأ الوحشي وجعلت من الدول الغربية قريبة لهذا التسابق
الاستعماري الذي اتخذ الدم رمزا له في مفكها وامتصاصها والعيش على حسابها.
وهكذا كان التسابق الحديث والمعاصر تسابقا لصالح قوم على حساب قوم
أو اقوام آخرين ويتدعى قانونه تعطيل تقدم بعض أبناء البشر لنفع بعضهم
الآخر ، وشكل هذا الاتجاه مبدأ القومية عند الأمم الغربية الحديثة ففهمت
من تنوع الشعوب دعامة لافتراض امتياز شعب على آخر وادعاء بعضها الحق
في جني ثمرات هذا الامتياز عن طريق الاستعمار والابتغال والنفوذ .

.. وان مزية الاسلام في مجال التنظيم للاجتماعي الداخلي والخارجي تقوم على مزج النظر بالعمل ومحاولة تطبيق مثله العليا تطبيقا عمليا ملبوسا في المجتمع الاتصافي . ولقد أدرك المسلمون وغير المسلمين من المنصفين أن هذه المزية من المزايا العظيمة الأثر في تاريخ الإنسان . ففي الوقت الذي حدثت فيه الكنيسة المسيحية في أوروبا وتخلت عن أداء واجباتها نحو المجتمع برز الاسلام قويا لدعوة لا تتخلق في السبأ وحسب ، وانما تسير على الأرض تغير كل ما يعترض سبيلها وتقدم الحلول الناجحة للشعوب المضطهدة . فأحسن العرب والعجم والزوم لا شعوب آسيا وأفريقيا بهذا التوازن الاصلاحى القاد وخضعوا لقوة اندفاعه . ويقول آرنولد توينبى Arnold Toynbee ان هذه الدعوة الاصلاحية نجحت نجاحا رائعا خاصة حين ترددت المسيحية في اصلاح طرائقها ، وكان من نتيجة ذلك أنه :

« في القرن السابع الميلادي حرر العرب المسلمون من السيطرة الاغريقية الرومانية سسلطة من البلاد الشرقية - من سوريا عبر شمال افريقيا الى اسبانيا - كانت تحت الحكم اليوناني والروماني مدة تقرب من الألف عام - منذ أن فتح الاسكندر الأكبر الامبراطورية الفارسية وتغلب الرومان على قرطاجنة . وبعد ذلك بين القرن الحادى عشر والسادس عشر استمر المسلمون في غزوهم على مراحل لجميع الهند تقريبا وانتشر دينهم بطريقة سلمية الى أبعد من ذلك في العالم في أندونيسيا والصين الى الشرق وفي افريقيا الاستوائية الى الجنوب الغربى . وكانت روسيا خاضعة خضوعا وقتيا في العصور الوسطى المتأخرة للتتار الذى اعتنقوا الاسلام وفتح باقي المملكة المسيحية الأرثوذكسية الشرقية في آسيا الصغرى وفي أوروبا الجنوبية الشرقية أثناء القرن الرابع عشر والخامس عشر بواسطة الأتراك العثمانيين المسلمين (٥)

فاللدولة الاسلامية كما يقول آرنولد توينبى وكما ذهب الى ذلك من قبل ابن خلدون تقوم على الدعوة بالتي بشر بها الاسلام . وحاول بها أن يصلح

أنتحال العالم بأمره ، العربي منه وغير العربي وجعل منها الغاية والوسيلة ، ولذلك كان ادعاء أعداء الإسلام ، من أنه دين يدعو إلى إقامة للدولة الإسلامية على قوة السيف ولستقلال الشعوب ، يذهب أدراج الرياح حين يسود لواء الإسلام ويحس الناس من بين جميع النحل والملل والأجناس والطبقات بتغيير جوهرى فى قيم الحياة وموازين العدل والسياسة . ولقد ظهر هذا الأثر أول ما ظهر بين المؤمنين المكين للذين تذكر المراجع التاريخية دفاعهم عن الإسلام أمام نجاشى الحبشة يقولهم انه دين الأخوة والعدل والترحام والامان لا دين عدوان القوى على الضعيف وانكار قيمة الإنسان كما كان متبعاً فى الجاهلية بين العرب^(٦) وانا نرى أن هذه الصورة من وصف التأثير بالإسلام تكاد تتكرر معالمها حين التقى الإسلام بأهل سوريا ومصر وشمال افريقيا وأسبانيا وغيرها من بلاد الشرق والغرب . ويقول ابن قيم الجوزية فى كتابه « زاد المعاد » أنه :

« لما رأى المسلمون نصارى الشام وشاهدوا هديهم وسيرتهم وعظمت وعلمهم وبرحمتهم وزهدهم فى الدنيا ورغبتهم فى الآخرة قالوا ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء وكان هؤلاء النصارى أعرف بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم ومن الكفار الذين يقولون عنهم أنهم متغلبون طالبوا ملك ودنيا»^(٧) .

وان سر الدعوة الإسلامية الذى جعل ذوى القلوب المصرة والعقول غير المتحيزة يرحبون بها ويشيدون بسموها هو قيامها على العدل تعامل به المؤمن وغير المؤمن على حد سواء . فهى لم تسمح للمواطن الدينية أو العنصرية أن تتدخل فى هذا الميزان الموضوعى الذى يزن أعمال الناس كأعضاء فى الأسرة البشرية لا أعضاء فى دين من الأديان أو وطن من الأوطان . ومن ثم احتفظ الإسلام دائماً بباب مفتوح لعلاقته مع الأجانب . ومن يحاول أن يصور الإسلام بأنه دين وان كان عالمياً إلا أنه مطلق^(٨) يعامل أهله بالخصى ومن سواهم بالعداء فقد اقترى عليه بهتاناً عظيماً وخانه التوفيق فى فهم الإسلام

وروجه . فالقائمون مطالبون بكبت عدوانهم لأعدائهم وضبطها على عكس ما نزلناه في مذهب السيادة المعاصرة التي تعيش على إذكاء النار والعداوة بين الشعوب وإثارة العواطف والمخاوف والاعتقاد عليها في مخاطبة الجماهير وجمعهم على تأييد أغراض الحكم الشخصية المتحيزة . فلا ريب ان الاسلام في تساميه في معاملة غير المسلمين حتى الأعداء منهم واتخاذ العدل المطلق المجرد الموضوعى مقياس التعامل بعد قوة روحية ومعنوية جليلة الأثر في تبديد ما جل بالانسانية من داء الشباغض الفتاك ومحاولتها استخدامه دعامة من دعائم الملك . فانه يقول في كتابه العزيز مخاطبا المؤمنين خطابا عاما شاملا لا قيد فيه ولا استثناء بالآية الكريمة :

” يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون “ (٩)

وان هذه الآية الكريمة لتضمن دستوراً لو قامت العلاقات الدولية عليه لكتب لها الاتزان والاعتدال ولجنبت ذلك الجمود الذي يتعرض له من حين لآخر نتيجة لبناؤها على الأهواء والشهوات بدلاً من استهداء العدل . ولقد أكدت الرسالة المحمدية أهمية العدل في حياة الانسان حتى جعلت منه غاية جوهرية من غايات الأديان السماوية جميعها ، فكل رسول أرسل الى الناس قد جاء بكتاب وميزان عدل في الوقت نفسه حتى ينلكوا السلوك القويم فقد قال تعالى في سورة الحديد :

” لقد أرسلنا رسلاً بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط “ (١٠)

واذا كان العدل هو عماد الرسالة المحمدية فان الاسلام لا يغفل اتخاذ قاعدة للحرب كما يعده قاعدة للسلم . اذ الاسلام دين يجمع بين المثالية في أوج علوها والواقعية في صميم تطبيقها . ومن ثم فهو يقرر أن الحرب حقيقة من حقائق الحياة الاجتماعية بين البشر كما يظهر من قوله تعالى :

«أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم
لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا
ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت
صوامع وبيع وصلوات ومآجد يذكر فيها اسم الله كثيرا» (١١)

ولكن هذه الحقيقة يجب أن تعالج بحكمة وتدبر ، فلا تعلن الحرب
دون سبب قاهر يتمثل في دفع ظلم أو عدوان يقصد به تدمير حياة المسلمين
أو دينهم أو مجتمعاتهم . إذ حرب المسلمين يجب أن تكون حرباً عادلة
لا يقشاهما اعتداء فالله لا يحب المعتدين . ويتلخص هذا الموقف الإسلامي
في الحرب في قوله تعالى :

«وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله
لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقتهم وأخرجوهم من حيث
أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد
الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء
الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى
لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا
على الظالمين» (١٢)

فالعدوان وحده هو الذي يحول بين المسلمين وبين رعايتهم للعلاقات
السلمية مع غيرهم فإذا ما انتفى العدوان أمر المسلمين بأن يقيموا علاقاتهم
على البر والعدل . وهو أساس إيجابي للعلاقات الخارجية والسياسة التي تنظمها .
إذ ليس كافياً أن يعدل المسلم في صلته بسواه من غير المسلمين بل يطلب إليه
أن يبره ويحسن إليه ويتجلى هذا الحكم في قول الله تعالى :

«لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم
من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين .
إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم
وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولم فأولئك هم
الظالمون» (١٣)

ومن ثم فالعلاقات الطيبة التي يقيمها المسلم بينه وبينه غير المسلم تعد من صفات العبد الذي ان هو تجل بها قربه إلى الله وجعلته أثرا لديه .

وبهذا التشريع الحكيم أضفى الإسلام على العلاقات الخارجية صفة أخلاقية . فعاملة المسلمين لغیر المسلمين ليست سوى امتداد لمعاملة المسلمين لأخوانهم من المسلمين فهي تخضع لنفس القانون الأخلاقي المنظم للعلاقات العامة والخاصة والخارجية والداخلية . ويمكن القول في هذه الحال باصطلاح العصر الحاضر أن القانون الدولي الاسلامی هو القانون للدستور الإسلامي . وهذا يناقض ما ذهب اليه مفكروا السياسة الغربيين من أمثال ماكينايل وهيجل ممن يرون أن الخلق الاجتماعي لا يوجد الا داخل الوطن الواحد ولا وجود له فيما وراء الحدود ، بل ان الحرية من كل قيد سوى مصلحة الوطن هي القاعدة المنطقية للسلوك الدولي . ولهذا كانت المعاهدات في رأيهم غير ملزمة الا الى الحد الذي تراه الدولة محققا لمشيئتها . ولقد كان لهذه الأناية السياسية دورها الهدام في العلاقات الدولية مما تجل بوضوح في الحربين العالميتين الأخيرتين . ولا ريب في أن قاعدة السلوك الاسلامی لتتقدم الى العالم الذي تسود فيه مثل هذه الفلسفة السياسية مصدرا اصلاحيا ملهما للعلاقات الدولية . وتظهر قواعد العلاقات الدولية الخارجية الاسلامية كذلك من التأكيد لأهمية حفظ العهود والمواثيق وتمجيدها من ناحية وذم الغدر والنكث بالعهود الا اذا وضح وضوحا تاما ان المعاهد الآخر يقصد الى الغدر ونقض العهد . فيقول تعالى :

« وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ان تكون أمة هي اربى من أمة انما يلوكم الله به وليين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » (١١)

ويقول الله تعالى :

«ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون .
الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون .
فاما تنقضهم في الحرب فشر دهم من خلفهم تعلمهم يذكرون .
ولما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب
الخانثين» (١٥)

واذا كان النبي محمد المؤمن الأول برسالة الاسلام ومبلغها للعالم
فقد كان كذلك المتخذ الأمين لتعاليمها . ومن ثم حرص على أن يتخذ شروط
المعاهدات ولو كانت محققة بالمسلمين كما كان الشأن في حالة صلح الحديبية
الذي عقده مع قريش وتضمنت شروطه ما عده بعض الصحابة أمرا يمس
كرامة الاسلام والمسلمين . وان المطلع على ما رواه ابن هشام نقلًا عن ابن اسحق
في وصف مصلح النبي عند عقد هذا الصلح وأثناء تنفيذه ليلمس بطريقة
مباشرة مدى حرص نبي الاسلام على السلام وعلى تقديمه للوفاء بالعهد
وابعاده شبح الخيانة والقدر عن الدين ومعتقديه . ويصف ابن هشام هذا الصلح
في قوله :

« قال ابن اسحق : قال الزهري : ثم بعثت قريش
سبيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي الى رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقالوا له : ائت عمدا فصالحه ولا يكن في صلحه
الا أن يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها
عنوة أبدا . فأتاه سبيل بن عمرو فلما رآه رسول الله صلى الله
عليه وسلم مقبلا قال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا
الرجل . فلما انتهى سبيل بن عمرو الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم تكلم فأطال الكلام وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح .

فلما التأم الأمر لم يبق الا الكتاب وثب عمر بن الخطاب
فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال بلى ..

قال أولسنا بالمسلمين ؟ قال بلى .. قل أوليسوا بالمشركين ؟
 قال بلى .. قال فعلام نعطى الدنيا في ديننا ؟ قال أبو بكر
 يا عمر الزم غرزه فاني أشهد أنه رسول الله .. قال عمر وأنا أشهد
 أنه رسول الله ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
 يا رسول الله ألسنت برسول الله ؟ قال بلى . قال أولسنا بالمسلمين ؟
 قال بلى . قال أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني .
 قال فكان عمر يقول ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق
 من اللتي صنتت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى
 رجوت أن يكون خيرا .

وقال : ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب
 رضوان الله عليه فقال أكتب بسم الله الرحمن الرحيم .. قال
 فقال سبيل لا أعرفه هذا ولكن أكتب باسمك اللهم فقال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم أكتب باسمك اللهم فكتبها .. ثم قال
 أكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سبيل بن عمرو ..
 قال فقال سبيل لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن أكتب
 اسمك واسم أبيك .. قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سبيل بن عمرو
 اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن
 الناس ويكف بعضهم عن البعض على أنه من أتى محمداً
 من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا بمن مع
 محمد لم يردوه عليه وان بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا اسلال
 ولا اغلال وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده
 دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

فتوالت خزاعة فقالوا نحن في عقد محمد وعهده وتوالت
 بنو بكر فقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم وانك ترجع عنا
 عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وأنه اذا كان غام قابل خرجنا

عنك فدخلتها بأصحابك فأقت بها ثلاثا ومعك سلاح الراكب
السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها .

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب هو وسهيل
ابن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد
قد انفلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا وهم لا يشكون
في الفتح لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوا ما رأوا
من الصلح والرجوع وما تحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم
في نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون فلما
رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتليبيه ثم قال :
يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال
صدقت ... فجعل يشره بتليبيه ويجره ليرده إلى قريش وجعل
أبو جندل يصرخ بأعلى صوته . . . يا معشر المسلمين أأرد
إلى المشركين يفتنون في ديني ؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل اصبر
واجتنب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا
ومخرجا انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك
وأعطونا عهد الله وانا لا نغدر بهم (١٧) .

وهكذا نفذ النبي شروط صلح الحديبية في اللحظة التي تم فيها ،
وقد حافظ على تنفيذه بعد ذلك نصا وروحا مؤكدا في كل حالة من الأحوال
تتزه المسلمين عن أن يكون القدر صفة من صفات دينهم مؤمنا بالمستقبل
وبأن الله قد جعل من هذا الصلح الذي يبدو في الظاهر المادى أنه هزيمة فتحا
ونصرا معنويا لدين الله ، إذ أن الاعتماد يزكو وينتشر في جو من الاطمئنان
والأمن الذي وفره هذا الصلح . وقد يكون من النصر المعنوى ما يفوق النصر
المادى في الأثر وما يكتب له الدوام والاستمرار حين يخفت صوت السيف
ويعلو صوت الحق . وانا لنسوق هنا شاهدا آخر من الشواهد التي ذكرها
ابن هشام للدلالة على أن المسلم لا يتمسك بقواعد الأخلاق في حدود سلطان

أبته وحسب ، وإنما يعامل الأجنبي بنفس القواعد التي يعامل بها أخاه
في الإيمان . فهو يقص قصة أبو بصير مع رسول الله حين التجأ إليه يطلب
جاءه من قريش في قوله : قال ابن أبي عمير :

« فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتاه
أبو بصير عتبة بن أمية بن جارية وكان ممن حبس بمكة فلما
قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب فيه أزهري بن عبد
عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة والأخنس بن شريق
بن عمرو بن وهب الثقفي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وبعثا رجلا من بني عامر بن لؤي ومعه مولى لهم فقدموا على رسول
الله صلى الله عليه وسلم بكتاب الأزهري والأخنس . فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بصير انا قد أعطينا
هؤلاء القوم ما علمت ولا يصلح لنا في ديننا القدر وإن الله
جاعل لك ومن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا فانطلق
إلى قومك . قال : يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنونني
في ديني؟ قال : يا أبا بصير انطلق فإن الله تعالى سيجعل لك
ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا » (١٨) .

وإن هذه الروح السحرة التي تراءت من القدر بالعهد وتزهت عنه
قد استقرت في ضمير المسلمين المؤمنين من بعد الرسول ولم يقف أمر تطبيقها
على عهد السلم وإنما صبغت وجهة نظرهم كذلك إلى الحرب . ويبدو هذا
جليا من وصية أبي بكر لجند أمانة وهم يوشكون السير لغزو الروم بعد
ما حدث في بعث أبيه (زيد بن حارثة) وما حدث في مؤته وفي تبوك من قبل
وتهديدهم للدين الجديد إذ قال :

« أيها الناس تقوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تحزنوا
ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا ولا تغتلبوا ولا تقطعوا شجرة
كبيراً ولا للمرأة ولا تعزوا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة
مشرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كله . وسوقاً

تقرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدهوهم
وما فرغوا أنفسهم له - وصوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية
فيها ألوان الطعام فاذا أكلتم منها شئنا بعد شئنا فاذكروا اسم الله
عليه - وتلقون أقواما قد فحصوا أوصاط رؤوسهم وتركوا
حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً - اندفعوا باسم
الله (١٩)

وفي الواقع أن هذا الجرح من قبل نبي الإسلام وأتباعه على إقامة
العلاقات الخارجية بينهم وبين غير المسلمين على أسس من الأخلاق العالمية
انما يرجع في أصله إلى طبيعة الرسالة الإسلامية - فهي رسالة إنسانية تهدف
إلى بناء مجتمع إنساني قوامه الود والبر والتعاون وليس قوامه العداوة والاعتداء
كما يدعى دعاة الأعداء من المشركين وأصحاب الأديان الأخرى - إذ قصد
الإسلام بتعاليمه أن تكون هدفاً للناس جميعاً لا لطائفة دون طائفة وأن تكون
القوة والروح المنتظم لمجتمع إنساني جسوده الخير والسلام - وإن مثل هذه الطبيعة
النسبية لدعوة الإسلام لتناقض اتهام الخصوم بأن الإسلام يقيم علاقاته
على قاعدة «الصديق أو العدو» وأنه قد شُرح إلى هذه الدنيا حاملاً سيفاً
يقتل به كل من عداه من غير المؤمنين به ، كما تناقض تفسير فقهاء المسلمين
الذين حاولوا أن يقتنوا علاقات الدولة الإسلامية في أيامهم وعصورهم
وأن يفسبوا تجزئتهم في العلاقات الدولية إلى الأسس الإسلامية - فالإسلام
لا يفترض قيام حرب دائمة مع شعب من الشعوب ، وإنما يفرق بين حالتي
الحرب والسلام بل هو لا يحارب إلا المعتدين الظالمين ويسارع دائماً إلى عقد
الصلح وإعادة السلام وتثبيت أركانه كلما سنحت الفرصة لعودة المعتدى
إلى تحكيم العقل وسلوك الرشاد - ويمكن تفسير الأسباب التي أدت إلى اتهام
الإسلام بالعداء لغير المسلمين ومحاربتهم وذلك يتأمل الظروف التاريخية
التي أحاطت بالدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية في مراحل اتصالها بالدول
الأجنبية .

فثياب أوروبا التي وجاء أثناء الحروب الصليبية ليقتضي على الاسلام ودولته في عهد من عهود الظلم والتعصب، لم يعرف من المسلمين سوى العداة المتصور والحروب الفعلية . وورث الخلف عن السلف هذه المسلك وامنوا في الظلم بأن نسبوا ميلوكم الخاص الى المسلمين ، ولا يزال الغرب يؤكد هذا الادعاء خديمة لأغراضه الاستعمارية والعقائدية وعشوية بقظة الاسلام التي قد تؤدي بسلطانه وتسهيل حضارة انسانية بحضارته الوحشية . ويوضح مولاي محمد على هذا المسلك بقوله :

« شامت أوروبا أن تقضى على الاسلام بحد السيف في حروبها الصليبية ولكنها باءت بالفشل . وكان أثر ذلك سيئا لقد عاد الجندي الأوربي الى وطنه مختلفا بالاعتقاد الزائف أن الاسلام هو عدو أوروبا بل عدوها الخيف لأنه لم يتشبه به الا في ساحات القتال ، وظل هذا الاعتقاد مبرانا يتوارثه الخلف عن السلف . ولم يقتصر الأمر على ذلك فان قادة أوروبا - وهم سادة أنساب الدعاية - اشغلوا جدوة هذه الكراهية بتصويرهم الاسلام تصورا يخالف الحقيقة كل المخالفة لأسباب سياسية ودينية :

ان الاسلام رسول السلام في العالم كافة بكل ما في هذه الكلمة من معان فهو أكثر الأديان المترلة سماحة ويسرا ولكنهم شوها حقيقة وقالوا عنه انه دين تعصب واستبداد . ان الاسلام لم يكتب بأن يقر في وضوح كل أنظمة الأديان السماوية الأخرى باعلانه أن ما من أمة على وجه الأرض الا جاءها نذير أو رسول يدعوها لعبادة الله ، بل تعدى الى أبعد من ذلك فجعل كل من اعتنق الاسلام يؤمن بالرسول الأخرى ايمانه بنبي الاسلام تماما (٢٠) . ولكن زعماء أوروبا السياسيين والدينيين يصورون النبي عليه الصلاة والسلام ممتشقا السيف في يد وحاملا القرآن في الأخرى . وعلى الرغم من الأضواء التي سلطت أخيرا على هذه الترهات فان بعض الكتاب الأوربيين مازالوا يصفون الاسلام بأنه دين السيف (٢١) . وقد فكرت أوروبا تحت تأثير اعتقاد

حينئذ في القضاء على الإسلام باضعافه من ناحية ومهاجمته بشتى
الادعاءات للكاذبة والافتراءات من ناحية أخرى . وإن كان
هناك ثمة أمر عقدت عليه أوروبا الخناصر فهو- إن الإسلام
أخطر عدو لها وأن واجها القضاء عليه أو اضعافه بشتى
الأساليب المشروعة وغير المشروعة . وقد سعت الهيئات
السياسية والدينية التي تنتسب لكافة شعوبها إلى هذه الغاية سعياً
حينئذ (٢٢) .

ويثابر الغرب المعاصر على مواصلة تراث الدولة الرومانية وتراث أمراء
العصور الوسطى الأوربية من معاداة الإسلام ومحاومته لأن الإسلام في ذاته
عقيدة ثورية اجتماعية تعرض المسلمين دائماً على ألا يخضعوا للذل والاستغلال
الذين فرضتهما الدول الرأسمالية الإستعمارية على بلاد الإسلام في عهد سيادة
الحضارة الغربية وتفوقها . فحرب الغرب على الإسلام حرب سياسية
واقتصادية ، وإنما تتخذ من الدين تكأة لتبرير الأطماع المادية التي اشتهر بها
الغرب في عهد تفوقه . ومن يقرأ كتب المستشرقين والمتخصصين من الغربيين
في الدراسات الإسلامية يرى أنها تكاد تكون صوراً متشابهة من سوء الفهم
المقصود للإسلام ومن التأويل المغرض المتور لآياته الكريمة واثبات الشروح
الضيقة الأفق لبعض فقهاء المسلمين في عهود الصراع والإعتداء من قبل
الأعداء . فؤلف مثل ج. سبنسر ترمنجهام J. Spencer Trimingham يكشف
أمر المستشرقين المغرضين بأن أيد في دراسته للإسلام في السودان الحكومة
البريطانية (٢٣) في تدخلها الديني بمنعها بسيف الدولة تسرب المسلمين من سكان
السودان إلى جنوب السودان ففي اختلاطهم بالقبائل البدائية والوثنية خطر
على التبشير المسيحي هنالك وتعويق لانتشاره . وذلك لأن الإسلام في رأى
ترمنجهام دين مفهوم يخاطب الوثنيين في الصميم ويخاطب طموح النفس
البشرية إلى الرقي والمساواة والكرامة والحرية . فالتاجر المسلم أو الفقيه
أو اللدرويش إذا نزع من شمال السودان وحل بين القبائل الوثنية وصلب وصام
وعبد الله على دين الإسلام اجتذب الوثنيين إلى ذلك الدين أكثر مما يجتذبهم

المبشرون المسيحيون الأوروبيون ، فهم يعطونهم ديننا مسيحياً ولكنهم لا يرفعونهم الى مصافهم من الناحية الاجتماعية بل يقفون على الفوارق القائمة على الطبقة والعنصر واللون والثقافة وغير ذلك . وهكذا يؤكد « ترمتهام »^٥ لئلا الإسلام والمسيحية حيناً يترك لها مجال التنافس حراً بين الوثنيين البدائيين يتغلب الإسلام لاعتماده على مخاطبة الفطرة الانسانية . وهو يقول في ذلك :^٦

« وأبعد من ذلك فحينما يكون الإسلام في منافسة مع تعاليم التبشير المسيحية التي يديرها أوروبيون حتى عندما يكون الحكام مسيحيين فإنه مع ذلك ينتشر لأنه يقدم قوماً دينية واجتماعية واقتصادية أقرب الى الفهم مما يقدم المسيحية الغربية التي تسمح فقط لمعتيقها بالمساواة الدينية لا المساواة الاجتماعية . »

وعلى مناطق الحدود تكون القيم الاجتماعية والاقتصادية المستمدة من الانضمام الى الإسلام واضحة وضوحاً بالغاً اذ الدولة اسلامية يحكمها على ذلك موظفون بريطانيون ومسلمون^٧ .

فتشير كتاب الغرب بالاسلام واتهامهم اياه بأنه يقيم العلاقات الدولية على الخصومة والعداء والحرب المستمر ، انما يستمد جذوره كما رأينا من مصادر متعددة بعضها ديني وبعضها ميامي اقتصادي . وقد دفع الغرب الى اضطهاد الاسلام ومحاولة القضاء عليه وقرع أغلب بلاده في مناطق آسيا وافريقيا الغنية بالموارد الطبيعية والتي اتخذ منها الاستعمار في عهده الرأسمالي مجالاً مشروعاً للاستغلال والنفوذ . فنزوع الإسلام الى مقاومة الظلم وتمجيده لقيمة الانسان وقراره العدل كأساس للدولة كل هذا جعل الغربيين وهم عبدة المصلحة الذاتية في العصر الحديث يركزون هجومهم على الإسلام كعقيدة دينية ونظام اجتماعي . ولكن قوة الدعوة الاسلامية وقيمتها الحضارية في تهيئة الجهر والفرصة للتعايش السلمي بين أقوام متعددي الأجناس والأديان والألوان ومستويات التحضر كثيراً ما تحرس السنة الداعين ضد الاسلام والمشوهين لحقائقه ، ومن ثم نرى الى جانب الانصاف للإسلام من بعض كتاب الغرب اضطراب الميثيق لفهم الاسلام لأن يقرروا الحقيقة ولو بين

ضباب الادعاءات والافتراءات ، فيقررون ان الاسلام انما يأذن بالحرب عند ما يقع الظلم على المسلمين أو على دينهم . ويظهر هذا في كتاب مجيد خلدورى « الحرب والسلام في قانون الاسلام » ، فالكتاب يكتب الصفحة تلو الصفحة ليثبت أن علاقات الاسلام الدولية تقوم على مبدأ الخصام لغير المسلمين ولكنه يضطر أخيرا أمام تراث الإسلام وتاريخه أن يعترف بتسامح الإسلام وكرمه مع غيره من المشركين وأهل الكتاب وبأنه لا يعلن حربا الا على الذين هم حرب عليه (٢٤) .

وليس هذا بالأمر الجديد . فالاسلام دعوة سلام تبدو في كل وجه من وجوه النظر والتطبيق والعقيدة والسياسة . ففهم الاسلام للدين هذا الفهم الواسع الذى يقوم على أن رسولا قد بعث الى كل قوم وأن الرسل كثيرون منهم من قص الله على النبي ذكره ومنهم لم يقصص لخليق بسعة الصدر التى اخصص بها دين عالمى كدين الاسلام وخليق بسعة الأفق التى قصد الى جعلها ميدانا يلتقى فيه الناس كافة . وذلك لأن الاسلام قصد به أن يكون ميدان لقاء للعالمين لا ميدان فراق وخصام . وأن الدعوة الاسلامية أكدت أن ذلك هو الهدف وأنه هو الوسيلة كذلك الا اذا أقام عائق العوائق في سبيل نشر دعوته . فلا اكراه في الدين ولا عنف اذ يقول تعالى لئيه :

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

ويعلمه أن يقول :

« قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون
ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم
دينكم ولى دين » (٢٦)

ويقرر أن الدعوة وسيلتها الاقتناع والحسنى :

« ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين
ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل لنا وأنزل اليكم وإلنا
والحكم واحد ونحن له مسلمون » (٢٧)

ويقول تعالى : - - - - -

« ادخ الى ميل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن ميله وهو اعلم بالمهتدين » (٢٨)

ولقد كان سلوك محمد في دعوته يتسقا مع عقيدة الاسلام ومنهجه ، فكان في ذلك اماما وتوفيرا للمسلمين هذه الامامة نموذج حتى يتأسونه ويتبعونه ويبحثون عن سكته كلما حمل بهم الطريق أو تعقدت لديهم المسائل والمشاكل . وتعد المعاهدات والمواثيق النبوية ثروة لا حد لها في بيان حرص نبي الاسلام على مساواة البشر جميعا سواء كانوا مشركين أو أهل كتاب ما داموا لا يحاولون أن يطفئوا نور الله وأن يصدوا بأنفسهم أو بلسانهم أنتشار ذلك النور الإلهي الذي جاء به الاسلام . ومهما أنكر المتكبرون دعوة الاسلام الى السلام فلن يستطيعوا أن يفضوا من موقف محمد ازاء مشركي مكة وذعابه الى ما ذهب اليه من تنازل في الحقوق وحرص على تنفيذ العهود حتى يضمن السلام لان الاسلام يزدهر في جوه بعد أن جاء ليهب نعمته الى الوجود .

واذ كانت معاملة النبي محمد للمشركين على هذا المستوى العالي من المساواة والتعاهد فانه لم يأل جهدا في موادعة أهل الكتاب . فليس هنالك معاملة أكرم من معاملة محمد ليهود يثرب حين هاجر اليها اذ قرر في ميثاقه الدستوري لتنظيم العلاقات بين طوائفها ، أن اليهود « أمة مع المؤمنين » وكفل لهم حرية الدين ولم يستثن في معاملتهم أحدا سوى الآثمين منهم شأنهم في ذلك شأن المسلمين . وبذلك ضمن لهم المساواة في الحقوق ولم يفرض عليهم أي شرط من شروط التمييز الاجتماعي بين المواطنين . ويظهر هذا من مواد هذا الميثاق المتصلة باليهود فهي تقرر :

١ - وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٢ - وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم الا من ظلم أو أثم فانه لا يورثغ الا نفسه وأهل بيته .

- ٣ - وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٤ - وأن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٥ - وأن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٦ - وأن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٧ - وأن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .
- ٨ - وأن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف . الا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته .
- ٩ - وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .
- ١٠ - وأن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف . وأن البر دون الأثم .
- ١١ - وأن موالى ثعلبة كأنفسهم .
- ١٢ - وأن بطانة يهود كأنفسهم .
- ١٣ - وأنه لا يخرج منهم أحد الا باذن عمد .
- ١٤ - وأنه لا ينحجز على ثار جرح وأنه من فتك فينفسه وبأهل بيته الا من ظلم وان الله على أبر هذا .
- ١٥ - وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الأثم .
- ١٦ - وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم .
- ١٧ - وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .
- ١٨ - وأن يترب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .
- ١٩ - وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .
- ٢٠ - وأنه لا تجار حرمة الا باذن أهلها .

٢١- وأنه بما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف
فساده فإن مرّده إلى الله وإلى محمد رسول الله وإن الله على أتقى
ما في هذه الصحيفة وأبره .

٢٢- وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

٢٣- وأن بيّتهم النصر على من دهم يشرب .

٢٤- وإذا دعوا إلى صلح يصلحونهم ويصلحونهم فأنهم يصلحونهم ويلبسونه
وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فأنه لم على المؤمنين إلا من حارب في الدين .

٢٥- على كل أناس خصمهم من جانبهم الذي قبلهم .

٢٦- وأن يهود الأوثس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع
البر المحض من أهل هذه الصحيفة وأن البر دون الأثم لا يكتب كاسب
الأعلى نفسه . وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرها .

٢٧- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظلم أو آثم وأنه من خرج آمن
ومن تعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وآثم وإن الله جار لمن بر
واتقى . ومحمد رسول الله ﴿ ٢٩ ﴾ .

وهكذا تؤكد مواد هذا الدستور الإسلامي أن أساس التعامل مع اليهود
هو البر المحض والمشاركة في تحمل المسؤولية الوطنية العامة من مالية وعسكرية
وسياسية . فالبر والتعاون هما أساس العلاقات الإسلامية مع غير المسلمين
طالما لا يأتون ولا يعتدون بطريقة جماعية كما حدث في تاريخ القبائل اليهودية
التي نقضت شروط هذا العهد وجعلت من نفسها حربا على الإسلام والمسلمين
في الداخل والخارج . ومن ثم وجد المسلمون أنفسهم في حل من شروط
هذا الميثاق بعد أن قابل اليهود السباحة بالغدر والمسللة بالعدوان .

ولقد مد المسلمون هذه المعاملة القائمة على « البر المحض » إلى المسيحيين
كذلك ولأنكروا لهم الأمن والحماية وحرية الاعتقاد . ولم يتخضع المسيحيون

الالما خضع له أهل الكتاب من دفع الجزية وهي ضريبة المساهمة في المستعريات العامة للدولة الإسلامية . وتظهر بأسس هذه العلاقة الخيرية من معاهدة النبي مع نصارى نجران وفيها يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. »

هذا ما كتب محمد النبي رسول الله لأهل نجران اذ كان عليهم حكمه في كل ثمرة وفي كل صفراء وبيضاء ورقيق فأفضل ذلك عليهم وترك ذلك كله لم علي الفى حلة من حلال الأواقي . في كل رجب ألف حلة وفي كل صفر ألف حلة مع كل حلة أوقية من القضة فما زادت على الخراج أو نقصت عن الأواقي فبالحساب وما أقضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض أخذ منهم بالحساب . وعلي نجران مؤنة رسلهم ومعتهم ما بين عشرين يوماً فما دون ذلك ولا نجس رسلهم فوق شهر .

وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً اذا كان كيد باليمن ومعرفة . وما هلك مما أعاروا رسلهم من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض فهو ضمن علي رسلهم حتى يؤدوه اليهم .

ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدتهم وعشيرتهم وبيعتهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يغير أسقف من أسقفته ولا راهب من رهبانته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم دية ولا دم جاهلية . ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يبطأ أرضهم جيش . ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ..

ومن أكل ربا من ذى قبل قدامى منه بريئة . ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر .

وعلي ما في هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا واصلحوا ما عليهم غير مثقلين بظلم» (٢٠) .

وان دلت نصوص هذه المعاهدة على شيء فانما تدل على أن الدولة
الاسلامية لا تقيس بمقاييس أو تكيل بكيلين . فالعدل هو الفيصل في أحوال
المسيحيين الشخصية والعامه كما هو كذلك في أحوال المسلمين .

وان معاهدات النبي الأخرى مع أهل الكتاب تفيض بروح المساواة
والعدل والاستمتاع الكامل بحريات المواطنين وحقوقه في الحياة والدين والمال .
فكنايه «لجنينا ولأهل خير» وللقنا «للدولانهم» ما دامت السحوات على الأرض» (٣١)
من الوثائق التي تؤكد أنه «لا تكراه في الدين» ولا في غيره من شؤون
المجتمع المعنوية والمادية . كما أن كتابه الى أسقف أيلة وأهلها « من بحته
ابن رؤبة وسروات أهل أيلة » يقرر الى جانب تأكيدات الأمان من قبل حكومة
الاسلام ايمان محمد برسالة عيسى في قوله « فاني رسول الله بالحقى أومن بالله
وكتبه ورسله وبالمسيح بن مريم انه كلمة الله واني أومن به انه رسول الله » (٣٢) .
وتسير كتب النبي ومعاهداته مع أهل الكتاب على هذا النسق ولا تشترط
الا على شرطين رئيسيين هما : وجوب المحافظة على السلم ، وأداء الجزية .
فالاسلام يضع السلم في الميكان الأول لاقرار النظام القومى والعالمى . وما ان
اتفق محمد مع أسقف أيلة وأهلها حتى منحهم وثيقة الأمان في الداخل
والخارج هم « ومن كان منهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر »
في معاهدته معهم ونصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. »

هذه أمة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحتمه بن رؤبة وأهل
أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان
معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر .

فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ما له دون نفسه وأنه طيب
لمن أخذه من الناس .

وأنه لا يخل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يردونه من بر

أو بحر .

هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحيل بن حسنة باذن رسول

الله ﷺ (٢٢)

ولقد طبعت هذه الروح التي سادت المعاهدات النبوية المعاهدات التي عقدها الخلفاء الراشدون مع غير المسلمين ، اذ أكدت الاحتفاظ لهم بحقوقهم وحررياتهم كاملة ما داموا يعيشون في دولة الاسلام ، وأن الصلح الذي عقده عمر مع أهل ايليا (بيت المقدس) يعد في الفكر السياسي الغربي والشرقي مثالا رائعا للتسامح الاسلامي في معاملة المخالفين له في الدين والسياسة . وتجري هذه المعاهدات على المنطق الآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم ..

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايليا من الأمان . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها . أنه لا تمكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار واحد منهم . ولا يمكن بايليا معهم أحد من اليهود .

وعلى أهل ايليا أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت . فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايليا من الجزية . ومن أحب من أهل ايليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويحلى بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه ما على أهل ايليا من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم .

وعلى ما في هذا الكتاب من عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن
ابن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر ستة وخمسة عشرة^(٢٤) .

ونحن ان استعرضنا المعاهدات الاسلامية مع غير المسلمين في عهد
اتصالهم الأول بغير المسلمين حين كانت السنة النبوية تحكم حكما مباشرا
أعمالهم ومواثيقهم تبين كذب الادعاء بأن الاسلام يفرض اعلان الحرب
التي لا تنقطع على غيره حتى يسلموا . ولقد استغل المفترضون المفروضون
تقنين بعض الفقهاء للقواعد التي تضبط علاقات المسلمين بغيرهم . ولكن
من يتأمل حتى القواعد الفقهية التي كثر الإقتراء في تأويلها يجد أنها لا يحمل
مطلقا معزى اعلان الحرب المستمر من المسلمين على غيرهم وبعبارة أخرى
الجهاد القائم أيد الدهر ضد غير المسلمين . فابن القيم الجوزية يلخص موقف
أهل الأرض من الاسلام في قوله : « فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام :
مسلم مؤمن به - ومسلم له آمن - وخائف محارب »^(٢٥) . ويعرف محمد الخضر
حسين المحاربين بقوله : « أما المحاربون فهم الذين يهاجمون أمة اسلامية
أو يتحفظون للهجوم عليها أو يمدون أيديهم الى حق من حقوقها ، وحكم
الاسلام في هؤلاء أن يدفعوا اذا هاجموا ويبادروا بما يكف بأسهم اذا تحمضوا
ويقوموا اذا اعتدوا على الحق حتى ينصفوا . باذن الاسلام في دفع المهاجم
أو كف المناوئ مع رعاية جانب الرفق والأخذ بالعرف »^(٢٦) . وهذا التعريف
لأهل الحرب أو المحاربين تعريف مستقى من روح الاسلام وقوانينه ونظمه
فأهل الحرب هم المعتدون من الأجانب وليسوا الأجانب على الاطلاق
وهم المعتدون طالما هم معتدون فان جنحوا للسلم بادر المسلمون بالجنوح لها
تفصيلا لقوله تعالى :

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو

السميع العليم . وان يريدوا أن يخدعوك فان حبك الله .

هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم

لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن

الله ألفت بينهم انه عزيز حكيم . يا أيها النبي حبك الله

ومن اتبعك من المؤمنين »^(٢٧) .

وان حرص الاسلام الأكيد على السلام في العلاقات الدولية ، انما ينبثق من حرصه على السلام داخل الدولة الاسلامية فالاسلام لا يسمح مطلقا بقيام حالة حرب بين المسلمين ويقدم لمعالجة مثل هذه الحالة جهازا عادلا حاسما في الوقت نفسه . فاذا ما قام خلاف بين طائفتين من المسلمين تبخلت الدولة بالاسلوب السلمى لوضع حد له ، فاذا لم يفlec الاسلوب السلمى واعتدت طائفة على الأخرى أمر الاسلام بمجازاة المعتدية - شأنها في ذلك شأن أية جماعة أجنبية معتدية - حتى تعود الى الاحتكام الى أوامر الله وقوانين المجتمع الاسلامى . فاذا عادت عولت كأنها لم تعد فلا يضيع لها حق بما جنت وانما يكون ميزان العدل وحده هو الفيصل في الأمر . ومن ثم نرى أن رائد الاسلام في سلمه وخزيه انما هو العدل والاهتداء بقيمه المستقيمة في اقامة صرح المجتمع الاسلامى والعالمى . وفي هذا يقول تعالى :

« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تقيء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين .
انما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » (٢٨)

وان الاسلام بهذا الموقف من السلم والحرب ليساهم أعظم المساهمة وأعماقها في تاريخ الانسان في الظروف الحاضرة التي تمر بها المدنية العالمية . فهناك اجماع كما ذكرنا بين مفكرى العالم اليايين بأن التطور في النظم اليايية لم يجر التطور في النظم الاقتصادية والفنية . اذ على حين أن وحدات العالم اليايية أضحت في حالة اعتماد متبادل بين بعضها البعض من ناحية الضروريات والكماليات التي تقوم عليها الحياة فهي لا تزال قصر على الانفصالية التي يستتبعها مبدأ السيادة القومية وتتخذ من الحرب في النهاية تعبيرا عن ارادتها التي لا راد لها سوى ما تحس به من ضعف يحول بينها وبين الالتجاء الى هذه الوسيلة في العلاقات الدولية . فالحرب في الدولة

الحديثة هي في التحليل النهائي لتنظيم الدولى مقياس السيادة وأداة اكتمالها .
ولا شك أن عصبه الأمم وهيئة الأمم المتحدة كانتا خطوتين في سبيل القضاء
على هذا المذهب القومى واقامة منظمة دولية تعد من الميل الى اتخاذ الحرب
وسيلة لتحقيق المطامع والأغراض الخاصة الا أن التحيز في استخدام سلطاتهما
قد انتهى بدمار الأولى ويهدد بانهاى الثانية . وان كانت هيئة الأمم المتحدة
قد تضمنت المبدأ الاسلامى الذى يؤكد قصر الحرب على مقاومة المعتدى
حتى يثوب الى قانون العدالة العام ، وأقامت لتطبيق ذلك جهازا عسكريا
الا أن التنفيذ العملى قد أظهر في حالة مثل حالة الحرب الأهلية في كوريا
أو العدوان الثلاثى على مصر أن الأمم المتحدة ليست متحدة على ميزان عدل
تفرض نتائجها على المعتدى سواء انتسب الى الغرب أو الى الشرق على قدم
المساواة . وكلما تأمل المفكر ما دعا اليه الاسلام من أن المجتمع الانسانى
كان أمة واحدة وان اختلاف الأمم الفرعية ليس الا وسيلة للتسابق الى الخير
وأن البر والتعاون هو أساس التعامل بينهما جميعا ، وان الحرب انما هي عصا
تأديب للمعتدى تجل له مبلغ ما يستطيع الاسلام تقديمه من الناحية المذهبية
والتنظيمية الى عالم أدرك الآن وحدة حضارته وعجز مع ذلك عن تقديم النظم
السياسية التى تتلاءم مع تطور الحضارة ، وانه لمن المؤكد ان الاسلام كما ساهم
في العصور الوسطى والدولة الحديثة في نشر الدعوة الى اقامة العلاقات الدولية
على أسس من العدالة يساهم الآن في الدولة المعاصرة في حل الأزمة التى تواجه
العالم وتهدهه بالبوارج والدمار مما دفع بكثير من مفكرى الحضارة المعاصرين
الى التشاؤم والاحساس بالعجز وخيبة الأمل . ان فى عدل الاسلام نصا
وروحا ونظرا وتطبيقا نعم الهادى للبشر فى مشكلة الحياة الانسانية وهى تجذب
بين قوى الاتحاد والفرقة .

المراجع

- ١٧- العيرة النبوية لابن هشام حققها
مصطفى السقا... وإبراهيم الأبياري
وعبد الحيد شلي، القاهرة ١٩٣٦
الجزء الثالث ص ٢٣١
- ١٨- ابن هشام جزء ٣ ص ٣٢٧
- ١٩- محمد حسين هيكل - الصديق أبو بكر -
الطبعة الثانية ١٣٦٢ مقبسة ص ١٠٥
- ٢٠- (أ) سورة قاطر ٢٤
(ب) سورة يونس ٤٧
(ج) سورة الرعد ٧
- ٢١- "إن نشر الإسلام مجد السيف والقوة
هو الواجب الديني على كل مسلم" و.ب.
ماكدونالد، دائرة المعارف الإسلامية.
- ٢٢- مولاي محمد عل - الإسلام والنظام
العالمي الجديد - ترجمة أحمد جودة
السمار ص ٣٢
- ٢٣- Trimingham, J. Spencer — Islam
in the Sudan, Oxford Univ 1949,
P. 248.
- ٢٤- Trimingham, J. Spencer — Islam
in the Sudan, Oxford Univ. 1949
P. 249.
- ٢٥- Majid Khaddour — War and
Peace in the Law of Islam.
Baltimore, John Hopkins Press
1953 P. 177.
- ٢٦- سورة الكافرون .
- ٢٧- سورة التكبوت ٤٦
- Sarokin, P.A. — Social (١) — ١
Philosophies of an age of crisis.
- Wallis. Crabam — Human (ب)
Nature in Politics.
- ٢ - سورة الحجرات ١٢
- ٣ - سورة البقرة ٢١٢
- ٤ - سورة المائدة ٤٧
- ٥ - Arnold Toynbee : The World
and the West, Oxford Univ.
Press 1953, P. 19
- ٦ - ابن هشام .
- ٧ - زاد المعاد في هدى خير العباد
لأبي عبد الله بن القيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١) القاهرة ١٩٣٤ م
١٣٥٣ (محمد عل صبيح وأولاده -
ميدان الأزهر) والجزء الأول ص ١٨٦
- ٨ - Khaddour, Majid — War and
Peace in the Law of Islam p. 63.
- ٩ - سورة المائدة ٨
- ١٠ - سورة الحديد ٢٥
- ١١ - سورة الحج ٤٠
- ١٢ - سورة البقرة ١٩٠-١٩٣
- ١٣ - سورة الممتحنة ٨-٩
- ١٤ - سورة النحل ٩١-٩٢
- ١٥ - سورة الأنفال ٥٥-٥٨
- ١٦ - سورة الأنفال ٥٥-٥٨ ص ٢٣٥ عربي

- ٢٨- سورة النحل ١٢٥
- ٢٩- محمد حيد الله الحيدرابادى - مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوى والخلافة الراشدة . القاهرة ١٩٤١ ص ٤
- ٣٠- محمد حيد الله الحيدرابادى - مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوى والخلافة الراشدة . القاهرة ١٩٤١ ص ٨١
- ٣١- الوثائق النبوية ص ٣٨
- ٣٢- الوثائق النبوية ص ٣٣
- ٣٣- الوثائق النبوية ص ٣٤
- ٣٤- الوثائق النبوية ص ٢٦٨
- ٣٥- ابن القيم الجوزية - زاد المعاد في هدى خير العباد - الجزء الثانى ص ١١٥
- ٣٦- محمد الخضر حسين - رسائل الاصلاح ١٩٣٩ ص ١٤١
- ٣٧- سورة الأنفال ٦١-٦٤
- ٣٨- سورة الحجرات ٩-١٠